ثاني اثنين في الهجرة

بيعة العقبة الثانية

ظلَّ النبي ﷺ ثلاث عشرة سنة يدعو أهل مكة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة يسانده المسلمون الأوائل وفي مقدمتهم أبو بكر في الدعوة حتى أذن الله تعالى للمؤمنين أنا يهاجروا فهاجروا إلى الحبشة مرتين ، ثم الهجرة إلى المدينة بعد بيعة العقبة الثانية حيث عاهد النبي ﷺ أهل المدينة على نصرته إذا هاجر إليهم فعن جابر قال: مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين (بالإضافة إلى ثلاث سنوات كانت الدعوة فيها سرية) يتبع الناس في منازلهم، عكاظ ومجنة، في المواسم، يقول: " من يؤويني ؟ من ينصرني ؟ حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة " فلا يجد أحداً يؤويه ولا ينصره، حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مُضَر، كذا قال فيه، فيأتيه قومه وذوو رحمه فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتنك.

ويمضى بين رحالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع.

حتى بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه وصدقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام.

ثم ائتمروا جميعا فقلنا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف ؟ فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين

حتى توافينا فقلنا: يا رسول الله علام نبايعك؟ قال: " تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة، فقمنا إليه فبايعناه وأخذ علينا وشرط ويعطينا على ذلك الجنة.[وهذا إسناد جيد على شرط مسلم ولم يخرجوه]

قال أهل العقبة للنبي : ابسط يدك.

فبسط يده فبايعوه.

تآمر قريش لقتل النبي

وبعد ذلك سمح النبي للمسلمين بالهجرة إلى المدينة المنورة ليس نجاة بأنفسهم إنما لتأسيس دولة الإسلام وقد مهَّد لها ببيعة العقبة الأولى والثانية .

فهاجر كل المسلمين ولم يتخلَّف معه بمكة إلا من حُبِس أو فتن، إلا على بن أبى طالب وأبو بكر بن أبى قحافة .

وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فيقول له " لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً " فيطمع أبو بكر أن يكونه.

فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صار له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة.

فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم.

فتشاوروا، قال أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد.

قالوا: وما هو يا أبا الحكم ؟ قال: أرى أن نأخذ من كان قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعها، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم.

فتفرَّق القوم على ذلك وهم مجمعون له.

فأتى جبرائيل رسول الله ﷺ فقال له: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه.

قال: فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلى بن أبى طالب: نم على فراشي وتسج ببردى هذا الحضرمي الأخضر، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم.

وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام.

وهذه القصة التي ذكرها ابن إسحاق قد رواها الواقدي بأسانيده، عن عائشة وابن عباس وعلى وسراقة بن مالك وغيرهم .

فأغشيناهم فهم لا يبصرون

قال ابن إسحاق: لما اجتمعوا له، وفيهم أبو جهل قال وهم على بابه: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان فيكم ذبح، ثم بعثتم بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها.

قال: فخرج رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب في يده ثم قال: " نعم أنا أقول ذلك، أنت أحدهم ".

وأخذ الله على أبصارهم عنه فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات:﴿ يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١-٩] ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً.

ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب.

فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم فقال: ما تنتظرون ههنا ؟ قالوا: محمداً.

فقال: خيبكم الله !

قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم ؟ ! قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلَّعون فيرون عليّاً على الفراش متسجياً ببرد رسول الله ﷺ فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائماً عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام عليٌّ عن الفراش فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذي كان حدثنا.

قال ابن إسحاق: فكان مما أنزل الله في ذلك اليوم وما كانوا أجمعوا له قوله تعال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠] وقوله ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ المُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطُّور:٣٠ ، ٣١]

قال ابن إسحاق: فأذن الله لنبيه ﷺ عند ذلك بالهجرة.

التخطيط للهجرة

وقد كانت هجرته ﷺ في شهر ربيع الأول، سنة ثلاث عشرة من بعثته ﷺ وذلك في يوم الاثنين.

قال محمد بن إسحاق: وكان أبو بكر حين استأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فقال له: لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحبا، قد طمع بأن يكون رسول الله ﷺ إنما يعنى نفسه.

فابتاع راحلتين فحبسهما في داره يعلفهما إعداداً لذلك.

قال الواقدي: اشتراهما بثمانمائة درهم."

منذ استشعر أبو بكر بأنه ربما يكون رفيقاً للنبي ﷺ في الهجرة أخذ يعدُّ العدة فاشترى راحلتين وحبسهما في داره وأخذ يعلفهما حتى ما أذن الله تعالى لنبيه ﷺ بالهجرة يكون مستعداً لذلك ، هذا هو التوكل الحق على الأخذ في الأسباب والدعاء لله بالتوفيق .

قال ابن إسحاق: فحدَّثني من لا أتهم، عن عروة بن الزبير، عن عائشة أم المؤمنين، أنها قالت: كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبى بكر أحد طرفي النهار إما بكرة، وإما عشية.

حتى إذا كان اليوم الذي أذن الله فيه رسول الله ﷺ في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهري قومه أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها.

قالت: فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله ﷺ في هذه الساعة إلا لأمر حدث.

قالت: فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله ﷺ وليس عند رسول الله ﷺ أحد إلا أنا وأختي أسماء بنت أبى بكر، فقال رسول الله ﷺ : " أخرج عنى من عندك " قال: يا رسول الله إنما هما ابنتاي، وما ذاك فداك أبى وأمي ؟ قال: إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة.

قالت: فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله ؟ قال: الصحبة.

قالت: فو الله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكى من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكى ! "

أبعد هذا الحب للنبي ﷺ حب إن الهجرة مع النبي ﷺ محفوفة بالمخاطر فقريش تترصده ﷺ وتآمرت على قتله ، ومن المفترض أن يسيطر القلق والاضطراب على من يصحب رسول الله ﷺ فيه الرحلة غير مأمونة العواقب بل إن عاقبتها القتل إن أمسكت بهما قريش ، ولكن يقين أبو بكر بالله تعالى وحبه للنبي ﷺ قد جعلاه يبكي من الفرح أن شرفه الله أن يكون رفيقاً للنبي ﷺ في الهجرة دون سائر المسلمين .

" ثم قال أبو بكر : يا نبي الله إن هاتين راحلتين كنت أعددتهما لهذا.

فاستأجرا عبد الله بن أرقط وكان مشركاً، يدلهما على الطريق، ودفعا إليه راحلتيهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما.

قال ابن إسحاق: ولم يعلم، فيما بلغني، بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج إلا على بن أبى طالب وأبو بكر الصديق وآل أبى بكر.

أما على فإن رسول الله ﷺ أمره أن يتخلف حتى يؤدى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله ﷺ، وليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته."

لم يستحلَّ النبي ﷺ أموال أهل مكة الذين عادوه وأخرجوه من أحب بلاد الله إليه إنما ترك علياً ليرد الأمانات إلى أهلها ، وهذا درس عظيم في الأمانة حتى مع من خالفك وعاداك نقول هذا للإرهابيين المجرمين الذين يزعمون أنهم يحاربون لنصرة الله ورسوله وهم يقتلون النفس التي

حرم الله ، ويهلكون الحرث والنسل ، ويأكلون أموال الناس بالباطل . ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ [البقرة :٢٠٤ ، ٢٠٥]

قال ابن إسحاق: " فلما أجمع رسول الله ﷺ الخروج أتى أبا بكر ابن أبى قحافة، فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته. ثم عمدا إلى غار بثور، جبل بأسفل مكة، فدخلاه.

وعن ابن أبى مليكة، أن النبي ﷺ لما خرج هو وأبو بكر إلى ثور، فجعل أبو بكر يكون أمام النبي ﷺ مرة، وخلفه مرة.

فسأله النبي ﷺ عن ذلك فقال: إذا كنت خلفك خشيت أن تؤتى من أمامك، وإذا كنت أمامك خشيت أن تؤتى من خلفك.

حتى إذا انتهى إلى الغار من ثور، قال أبو بكر: كما أنت حتى أدخل يدي فأحسُّه وأقصُّه، فإن كانت فيه دابة أصابتني قبلك.

قال نافع: فبلغني أنه كان في الغار جُحْر فألقم أبو بكر رجله ذلك الجحر تخوفاً أن يخرج منه دابة أو شيء يؤذى رسول الله ﷺ ."

ما بلغنا عن أحد أحبَّ أحداً كحب أبي بكر للنبي ﷺ وتضحيته في سبيله .

شهادة عمر على إيثار الصديق النبي على نفسه

حدثنا محمد بن سيرين، قال: ذَكَر رجالٌ على عهد عمر، فكأنهم فضَّلوا عمر على أبى بكر، فبلغ ذلك عمر فقال: والله لليلة من أبى بكر خير من آل عمر، وليوم من أبى بكر خير من آل عمر ! لقد خرج رسول الله ﷺ ليلة انطلق إلى الغار ومعه أبو بكر فجعل يمشى ساعة بين يديه وساعة خلفه.

حتى فطن رسول الله ﷺ فقال: يا أبا بكر ما لك تمشى ساعة خلفي وساعة بين يدي ؟ فقال: يا رسول الله أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك.

فقال: يا أبا بكر لو كان شيء لأحببتَ أن يكون بكَ دُوني ؟

قال: نعم والذي بعثك بالحق.

فلما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر: مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ لك الغار، فدخل فاستبرأه، حتى إذا كان ذكر أنه لم يستبرئ الجحرة فقال: مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ.

فدخل فاستبرأ ثم قال: انزل يا رسول الله. فنزل.

ثم قال عمر: والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من آل عمر."

وهذه شهادة من الخليفة الراشد الثاني المحدَّث عمر بن الخطاب يبين فيها مكانة وفضل أبي بكر.

وقال ابن إسحاق " أمر أبو بكر الصديق ابنه عبد الله أن يتسمَّع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر.

إيثار الصديق النبي على ماله وأهله

وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره، ثم يريحها عليهما إذا أمسى في الغار.

فكان عبد الله بن أبى بكر يكون في قريش نهاره معهم، يسمع ما يأتمرون به، وما يقولون في شأن رسول الله ﷺ وأبى بكر، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر.

وكان عامر بن فهيرة يرعى في رعيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبى بكر فاحتلبا وذبحا، فإذا غدا عبد الله بن أبى بكر من عندهما إلى مكة أتبع عامر ابن فهيرة أثره بالغنم يعفى عليه.

قال ابن إسحاق: وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما."

يأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يستطلع أخبار أهل مكة ليطلعه عليها لاختيار الوقت المناسب للهجرة ، ويأمر ابنته أسماء بإحضار الطعام والشراب وما يلزم الإعاشة في الغار ، ويأمر خادمه عامر بن فهيرة بأن يأتي بالغنم ليشربوا من لبنها ويأكلوا من لحومها ، ولتطمس أثر أقدام أسماء وأخيها عبد الله .. أنظروا إلى دقة التخطيط وإحكام التدبير اللذين سخَّر لهما أبو بكر أهله للقيام على تنفيذهما على ما يكتنف هذه الأعمال من مخاطر جزاؤها القتل ، ولكن أبا بكر لم يفكِّر إلا في سلامة النبي ﷺ ونجاح الدعوة وإن ضحَّى في سبيل ذلك بنفسه وولده وماله وكل عزيز عليه ، هذا مقام الصديقية الذي لم يبلغه من الصحابة إلا أبو بكر وهذه منزلة حق اليقين التي لم يصل إليها منهم أحد سواه .

قالت أسماء: " ولما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبى بكر فخرجت إليهم فقالوا: أين أبوك يا ابنة أبى بكر ؟ قالت: قلت: لا أدرى والله أين أبى.

قالت: فرفع أبو جهل يده، وكان فاحشاً خبيثاً، فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي، ثم انصرفوا.

عن أسماء قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وخرج أبو بكر معه، احتمل أبو بكر ماله كله معه، خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف درهم، فانطلق بها معه.

قالت: فدخل علينا جدي أبو قحافة، وقد ذهب بصره، فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه.

قالت: قلت: كلا يا أبت إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً.

قالت: وأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبى يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذت بيده فقلت: يا أبت ضع يدك على هذا المال.

قالت: فوضع يده عليه فقال: لا بأس، إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن، وفى هذا بلاغ لكم.

ولا والله ما ترك لنا شيئاً، ولكن أردت أن أسكن الشيخ بذلك ! "

أي إيمان هذا الذي يجعل رجلاً يأخذ كل ماله لينفقه في سبيل الله ورسوله ويترك أهله بلا مال ؟!

ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ

لم تيأس قريش من البحث عن النبي ﷺ بل أخذت تبحث عنه في كل مكان ، وبذلوا جهدهم بحثاً عنه واسخَّروا علومهم ومعارفهم في سبيل ذلك .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ قَالَ تَشَاوَرَتْ قُرَيْشٌ لَيْلَةً بِمَكَّةَ فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِذَا أَصْبَحَ فَأَثْبِتُوهُ بِالْوَثَاقِ يُرِيدُونَ النَّبِيَّ ﷺ وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ اقْتُلُوهُ وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ أَخْرِجُوهُ فَأَطْلَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهُ ﷺ عَلَى ذَلِكَ فَبَاتَ عَلِيٌّ عَلَى فِرَاشِ النَّبِيِّ ﷺ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى لَحِقَ بِالْغَارِ وَبَاتَ الْمُشْرِكُونَ يَحْرُسُونَ عَلِيًّا يَحْسَبُونَهُ النَّبِيَّ ﷺ فَلَمَّا أَصْبَحُوا ثَارُوا إِلَيْهِ فَلَمَّا رَأَوْا عَلِيًّا رَدَّ اللَّهُ مَكْرَهُمْ فَقَالُوا أَيْنَ صَاحِبُكَ هَذَا قَالَ لَا أَدْرِي فَاقْتَصُّوا أَثَرَهُ فَلَمَّا بَلَغُوا الْجَبَلَ خُلِّطَ عَلَيْهِمْ فَصَعِدُوا فِي الْجَبَلِ فَمَرُّوا بِالْغَارِ فَرَأَوْا عَلَى بَابِهِ نَسْجَ الْعَنْكَبُوتِ فَقَالُوا لَوْ دَخَلَ هَاهُنَا لَمْ يَكُنْ نَسْجُ الْعَنْكَبُوتِ عَلَى بَابِهِ فَمَكَثَ فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ " [رواه أحمد]

وبعض الباحثين يشكِّك في نسج العنكبوت على باب الغار مع أن الحديث الذي رواه أحمد في مسنده وابن كثير في " البداية والنهاية " ، وابن حجر في " الفتح ".

قال بن كثير تعليقاً على هذا الحديث " وهذا إسناد حسن، وهو من أجود ما روى في قصة نسج العنكبوت على فم الغار، وذلك من حماية الله ورسوله ﷺ " .

وعن الحسن البصري، قال: انطلق النبي ﷺ وأبو بكر إلى الغار، وجاءت قريش يطلبون النبي ﷺ وكانوا إذا رأوا على باب الغار نسج العنكبوت قالوا: لم يدخل أحد.

يا أبا بكر لا تخف إن الله معنا

وكان النبي ﷺ قائماً يصلى وأبو بكر يرتقَّب، فقال أبو بكر للنبي ﷺ: هؤلاء قومك يطلبونك، أما والله ما على نفسي أئل (أحزن) ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره.

فقال له النبي ﷺ : " يا أبا بكر لا تخف إن الله معنا ".

وقد كان ﷺ إذا أحزنه أمر صلَّى.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٤٠] يقول تعالى مُؤنِّباً لمن تخلَّف عن الجهاد مع الرسول ﷺ : " إلا تنصروه " أنتم فإن الله ناصره ومؤيده ومظفره، كما نصره " إذ أخرجه الذين كفروا " من أهل مكة مهاجراً ليس معه غير صاحبه وصديقه أبى بكر ليس غيره.

ولهذا قال " ثاني اثنين إذ هما في الغار " أي وقد لجآ إلى الغار فأقاما فيه ثلاثة أيام ليسكن الطلب عنهما.

وذلك لأن المشركين حين فقدوهما كما تقدَّم ذهبوا في طلبهما كل مذهب من سائر الجهات، وجعلوا لمن ردهما، أو أحدهما مائة من الإبل، واقتصوا آثارهما حتى اختلط عليهم، وكان الذي يقتص الأثر لقريش سراقة بن مالك بن جعشم فصعدوا الجبل الذي هما فيه، وجعلوا يمرُّون على باب الغار، فتحاذي أرجلهم لباب الغار ولا يرونهما، حفظاً من الله لهما.

كما قال أحمد: عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ حَدَّثَهُ قَالَ : نَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رُءُوسِنَا وَنَحْنُ فِي الْغَارِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ فَقَالَ يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا " [متفق عليه]

ولما بلغ النبي ﷺ وصاحبة يأس قريش من العثور عليهما وكفَّا عن البحث عنهما قرر النبي ﷺ الهجرة إلى المدينة فأرسلا إلى عامر بن فهيرة وانطلق معهما فأخذ بهم طريق السواحل.

لقد أخذ النبي وأبو بكر في كل الأسباب واستفرغا جهدهما وكان توكلهم على الله من قبل ومن بعد الإعداد والأخذ في الأسباب فكان تأييد الله لهما بأن أعمى بصر أهل مكة عنهما إذ وقفوا بباب الغار ، وأساخ أقدام فرس سراقة عندما أبصرهما وفي هذا درس عظيم في حسن التوكل على الله تعالى .

سراقة بن مالك يروي ما حدث له في الهجرة

عن ابن شهاب قال سراقة بن مالك: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبى بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره.

فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بنى مدلج، إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس.

فقال: يا سراقة إنى رأيت آنفا أسودة (سواد شخص يرى من بعيد) بالساحل أراها محمداً وأصحابه.

قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا.

ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهى من وراء أكمة فتحبسها على، وأخذت رمحي فخرجت من ظهر البيت فخططت بزجه (الحديدة في أسفل الرمح) الأرض وخفضت عاليه، حتى أتيت فرسي فركبتها فدفعتها ففرت بي حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي فخررت عنها، فركبت فرسي فجعل فرسي يقرب بي، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت (غاصت) يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها فأهويت، ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان فناديتهم بالأمان، فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتهم ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله .

فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يسألاني إلا أن قالا: أخفِ عنَّا.

فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب لي رقعة من أدم.

ثم مضى رسول الله ﷺ .

ولما رجع سراقة جعل لا يلقى أحد من الطلب إلا رده وقال: كفيتم هذا الوجه."

والشاهد في هذه القصة غير عناية الله تعالى التي تحيط المتوكِّل على الله حقَّ توكله هو خوف أبي بكر على النبي ﷺ بكثرة التلفُّت يمنة ويسرة خشية أن يراهما أحد المتربصين بهم من قريش مع أن النبي ﷺ طمأنه وقال له " يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا " والنبي ﷺ نفسه لم يكن يلتفت كما ذكر سراقة لكن فرط حب أبي بكر وشدة الشفقة على النبي ﷺ ودعوته جعلته دائم الحذر كثير التلفت .

الذين آووا ونصروا

وسمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا دون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة.

فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم فبصر رجل برسول الله ﷺ وأصحابه .

" فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، يعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بنى عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول.

فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيِّى أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك."

انظر إلى أبي بكر يظلُّ قائماً رغم مشقة السفر بينما جلس النبي ﷺ فإذا ما أحس حرَّ الشمس على النبي ﷺ ظلَّله بردائه ليحميه حرَّ الشمس وليرشد من لا يعرف النبي ﷺ عليه .

بهذا حاز أبو بكر حبَّ الله ورسوله ومنزلة الصديقية والأمر لا يتوقف على نصرة النبي ﷺ في مكة حيث آمن به إذ كذبه الناس ونصره إذ خذله الناس وفداه بنفسه وماله وولده إذ أخرجه الناس إنما استمرَّ أبو بكر على حاله هذه مع النبي ﷺ فِي الْمَكْرَهِ وَالْمَنْشَطِ وَالْعُسْرِ وَالْيُسْرِ ، ولا يُؤْثِر أحداً عليه لا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لائِمٍ .

وإذا استعرضنا مواقف أبي بكر في نصرة الله ورسوله يطول بنا الحديث لكن سوف نكتفي بأبرزها .

***